الفلسفة واليومي	**اكتشاف اليومي: فينومينولوجيا الاعتيادي**
حصة 5: درسان	د. محمد شوقي الزين

تحدث وقائع القصة سنة 1930. لدى عودته من برلين حيث قضى وقتاً من البحث، التقى ريمون آرون بجان بول سارتر وسيمون دي بوفوار في إحدى مقاهي باريس. بينما كان سارتر يتناول عصيراً، توجَّه إليه آرون بالقول: «أترى زميلي؟ إذا أردت أن تكون فينومينولجياً، يمكنك أن تتكلَّم عن هذا العصير، وهذا بالذات عبارة عن فلسفة!». علَّقت سيمون دي بوفوار على ذلك: «اجتاحت سارتر موجة من الشغف، لأن هذا بالضبط ما كان يبحث عنه منذ سنوات: الحديث عن أشياء يلمسها بنفسه وتكون هي الفلسفة ذاتها. أقنعه آرون بأن الفينومينولوجيا تجيب بالضبط عن انشغالاته: مجاوزة التعارض بين المثالية والواقعية، وإثبات سيادة الوعي وحضور العالم كما يتجلَّى لنا»[1].

1

خلصنا في الحصة السابقة إلى أن ميشال دو سارتو رأى في اليومي محفِّزاً على الإبداع الفني واستعمل ثنائية الاستراتيجية-التكتيكية إجراءً مفهومياً لتبيان كيف أن الإبداع هو مقاومة (تكتيكية) داخل إكراه (استراتيجية) من أجل حُرية في الأداء وفي الابتكار. تُصدِّق حنه أرنت هذه الفكرة من حيث أن استحقاق الحرية يكون دائماً في مجال منضبط تسوده قواعد إكراهية. لا يمكن إذاً الإبداع سوى في حقلٍ من الاضطرار تبدأ فيه الحرية بالتحرُّر: «لكي يكون حُرًّا، كان على الإنسان أن يتحرَّر بنفسه. كان هذا التحرُّر بالمقارنة مع الإكراه الذي فرضته ضروريات الحياة يُشكِّل المعنى الخاص لوقت الفراغ الإغريقي (Skholè) أو التعطل اللاتيني (otium)»[2]. لا بدَّ إذاً من وقتٍ يتفرَّغ فيه الإنسان للإبداع ضدَّ قسريات الحياة أو العمل. وهذا ما برهن عليه دو سارتو بجُملة الأمثلة حول استعمال الزمن والمكان بطريقة فنيَّة تُعبِّر عن شكلٍ من أشكال الابتكار البشري.

يذهب بريس بيغو عكس ذلك في «اكتشاف اليومي» وينتقد الطريقة التي عالج بها دو سارتو سؤال اليومي. بالنسبة لبيغو، الذي وظَّف المعجم الفينومينولوجي في قراءة ظاهرة

[1] Pierre Macherey, « Le quotidien, un objet philosophique ? », *op. cit.*, p. 4.
[2] Hannah Arendt, *Qu'est-ce que la politique ?*, Paris, Seuil, 1995, p. 76.

اليومي، لا يمكن دائماً إرجاع هذا الأخير إلى حفلة من الممارسات السعيدة والمبتكرة. بل إن الطابع المنفلت لليومي يجعل كل ابتكار يتعرَّض لنقيضه وهو الهدم؛ كل أصالة تستبدُّ بها عدم الأصالة. لنُفكِّر مثلاً في ظاهرة المزيَّف (contrefaçon) وهي صُنع منتجات لا قيمة لها تضاهي المنتجات الحقيقية. مثلاً المصنوعات الجلدية مثل محفظة الأوراق النقدية التي لها ماركات عالمية وذات ثمنٍ باهظ ومحفظة أخرى تشبهها في الشكل واللون وهي «طبق الأصل»، لكنها مزيَّفة وزهيدة الثمن وتُصنع في معامل غير شرعية في دول فقيرة. لا يمكن عدُّ هذه المنتجات ابتكاراً سوى لأنها عبارة عن محاكاة للماركات العالمية. الشيء نفسه مع الحقائب أو الملابس الرياضية والعطور.

نجد أن الماركة الأصلية التي تُبدع في إخراج منتجات فنية ذات جودة عالية تجد ما يُقابلها من إبداع مضاد يضاهيها في السوق، عديم الجودة ومخصَّص للاستهلاك المعمَّم. هكذا يدخل هذا الإبداع المزيَّف في نوعٍ من الابتذال، لأنه بلا قيمة ملموسة ولا سندٍ رأسمالي معتبر. يوجِّه بيغو نقده إلى فكرة الابتكار عند دو سارتو ويرى بأنها ساذجة، لأن هذا الأخير اعتدَّ بالبُعد الدينامي والاحتفالي لليومي وما يُمكن للتكتيكية أن تخلقه من وضعيات حيوية تفرُّ من الرقابة الاستراتيجية. لا يمكن التعويل على جمالية اللحظة الإبداعية في اليومي، بل هناك أيضاً لحظات في الابتذال والتطويع والتدجين تجعل الناس سواسية بقوة العادة: «بقراءتنا لكتاب "ابتكار اليومي"، علينا أن نتحرَّر من الانطباع بالقيمة الزائدة والساذجة التي يوليها للابتكار الخلاَّق والعادي»[3].

في نظر بيغو، يكون دو سارتو قد أسرف في استعمال ثنائية الاستراتيجية والتكتيكية، بجعل التكتيكية نقيض القضية دون مآل جدلي، لأنها تحتال على الاستراتيجية وتفلت من إجراءاتها في الرقابة والضبط لتبدع شيئاً مغايراً وفريداً. يمنع الصراع بينهما الوصول إلى أيِّ حلٍّ جدلي، ما دام دو سارتو يتصوَّر المجتمع حقلاً في الصراع بين المؤسسات والأشكال السياسية والثقافية من جهة، وبين ما يشتغل فيها من مقاومات وانزياحات من جهة أخرى: «يتجاهل دو سارتو كليَّةً التطبيع الداخلي للحياة اليومية الذي لا يستجيب للمقتضيات الخارجية للحياة الاجتماعية، بل يخضع إلى الإيعاز الوحيد للإلحاح الحيوي»[4]. ومن ثمَّ يتصوَّر دو سارتو الحياة اليومية كممارسة في المقاومة وإبداع لا ينضب لأشكال موازية أو منافسة

[3] B. Bégout, *La Découverte du quotidien*, p. 572.
[4] Ibid., p. 573.

للأشكال السياسية والثقافية الرسمية القائمة: «ليس من شأن اليومي أن يواجه منظومة المعايير الاجتماعية، لكن عليه أيضاً أن يتعايش مع عيارية السيرورة في اليَوْمَنَة»[5].

ما يُسمِّيه بيغو «اليَوْمَنَة» (quotidianisation) ينخرط في هذه السيرورة الجدلية في انتظام الممارسات اليومية، وأن اليومي هو قوة جاذبة في التطبيع والتطويع، ولا يمكن دائماً تصوُّره بشكل رومانسي في المقاومة والانزياح. لا يمكن تصوُّر اليومي كما لو كان سلطة مطلقة أمام مقاومة راديكالية، كما لو كان صراعاً مانوياً بين الأسود والأبيض، بل هناك ألوان وسطى ودرجات بينية تجعل التعايش بينهما ممكناً. من جانب آخر، لا يمكن نفي البُعد الخلاَّق لليومي وأن الأفراد يصنعون لذواتهم شرطاً في العيش يحاول الإفلات من الرقابة، لكن لا يمكن كذلك نفي البُعد الاعتيادي لليومي بالزج بالأفراد في معيارية لا يمكنهم الخروج منها، لأنها تشتغل بمنزلة قواعد قسرية يستقيم بها السلوك اليومي في مختلف النشاطات والوظائف التي يزاولونها: «قبل البحث عن التحايُل على المعايير الاجتماعية، يواجه اليومي مشكلة عاجلة وحيوية: محاربة اللايقين الأصلي لكل تجربة إنسانية وتشكيل جوٍّ من الألفة يكون فيها الفعل ممكناً، سواء أكان خضوعاً أم تخريباً»[6].

قبل الحديث عن الشكل الذي يكون عليه اليومي والإجراءات التي تُحرِّكه، أاستراتيجيات كانت أم تكتيكات، وجب طرح السؤال الفلسفي وهو إمكانية الفعل وطبيعة التجربة الإنسانية التي تخوض اليومي. يمكن للفعل أن يكون خضوعاً للمعايير الاجتماعية دون مقاومة، ويمكنه أن يكون مناهضةً لهذه المعايير بإزاحتها عن أصلها واستعمالها لأغراض أخرى غير ما جُعلت لأجله. تتخلَّل اليَوْمَنَة الفضاء البيني للألفة والغرابة، تارةً خضوع للمعايير وتارةً أخرى خروج عليها، تارةً استراتيجية في التطبيع، وتارةً أخرى تكتيكية في التخريب. حسب بيغو، لا يمكن رجحان الكفَّة لإحداها دون الأخرى. بل نشهد نوعاً من التكوير، بأن تتكوَّر حالة التطبيع على حالة المقاومة، مثلما يتكوَّر الليل على النهار: «ينبغي مباشرة بحثٍ جديد حول العلاقات الدينامية والمعقَّدة بين المألوف والغريب في قلب اليَوْمَنَة»[7].

2

[5] Ibid., p. 575.
[6] Ibid., p. 577.
[7] Ibid., p. 579.

ما يعيبه على دو سارتو، هو أنه رجَّح كفَّة التكتيكية على حساب الاستراتيجية وأرجع اليومي إلى ابتكار مستدام بمجموع الحِيَل والمقاومات. بفعله هذا يكون دو سارتو قد أهمل الشق الآخر من اليومي وهو قوة التطبيع والتطويع التي تُخضع الأفراد إلى نوعٍ من الروتينية والتواكل. بدلاً من الابتكار والبُعد الاحتفالي لليومي بمجموع الأفعال الخلاَّقة، يستحضر بيغو «التعقُّل» (phronésis) الذي أدرجه أرسطو في معقولية الفعل البشري، وينعت به الحكمة العملية في أداء الفعل في الحياة اليومية. يأخذ التعقُّل اليومي كما هو، بشقَّيه الاستراتيجي والتكتيكي، ببُعديه المألوف والغريب، وينتمي بحذافيره إلى اليَوْمَنَة. يأتي هذا التعقُّل في شكل سلوك حدسي سابق على الوعي التَّام باليومي. من هنا جاء مسوّغ بيغو في قراءة هذا السلوك بأدوات فينومينولوجية تكشف فيه عن بُعد الاعتيادية والروتينية.

الحديث عن سلوكٍ شبه واعٍ هو التَّسليم بأن الأفراد لا يتحكَّمون دائماً في أفعالهم. بل إن اليومي يفعل بهم على غير درايةٍ منهم، بمجموع المعايير الموزَّعة التي يخضعون إليها وتُبرز الجانب الاعتيادي من معيشهم. يُشكِّل التعقُّل محطة أساسية من محطات اليَوْمَنَة: «ليس هذا التعقُّل اليومي مجرَّد حيلة أو مهارة متكلِّفة (ترجع الظروف إلى مصلحتها الخاصة)؛ بل هي موازية للبهتان اليومي وتسعى لأن تُخفِّف من مفاعليه الضَّارَّة»[8]. هناك في اليومي وقائع ليست دائماً سعيدة ومدعاة للابتكار، بل هي في الغالب مثبِّطات تقتضي النباهة لتفاديها. حدَّدها هايدغر مثلاً في الهمِّ (Sorge, souci)، وسارتر في سوء النيَّة (mauvaise foi)، ليس بالمعنى الأخلاقي، بل بالمعنى الوجودي للكلمة، بحكم أن وجود الإنسان في العالم يقتضي مثل هذا النوع من السلوك. لا تتطلب المسألة الحكم عليه، بل وصفه واستخلاص آليات اشتغاله: «يُخرجنا التعقُّل من الخضوع الجاهل ومن الممارسات الاحتيالية ويجعلنا في تماس مع الواقع الأصيل للحياة الجارية»[9].

معنى ذلك أن التعقُّل لا يُختزَل في حسابٍ يعمل على كسب الظروف لصالحه في سلوكٍ احتيالي يقاوم الإجراءات السلطوية (الاستراتيجية)، بل هو سلوك يقظ، ينتبه للمثبِّطات اليومية ويسعى لتفاديها، دون أن ينسى أو يتناسى بأن البُعد المعياري لليومي أمر وارد ويُنظِّم حياة الأفراد، أحياناً بلا درايتهم. التعقُّل هو حكمة عملية يُنسِّق بين مختلف النشاطات اليومية للتجربة الإنسانية، بكل ما تحمله من تناقضات وما تواجهه من اختلافات جوهرية بين

---

[8] Ibid., p. 582.
[9] Ibid., p. 583.

الألفة والغرابة، وبين العادي والخارق للعادة. معرفة كيف يشتغل التعقُّل في اليومي مرهون بمعرفة طبيعة اليومي الذي يتحدَّث عنه بيغو. كُنَّا قد أعطينا تحديدات متنوِّعة لطبيعة اليومي عند جُل الفلاسفة الذين أدرجناهم في هذه الدروس، وبيغو هو أحد هؤلاء الفلاسفة المعاصرين الذي جعل من اليومي موضوعاً لبحوثه الفلسفية في شقِّها الفينومينولوجي.

ما يتميَّز به اليومي عنده هو أنه ظاهرة تنفلت من الإحاطة بها، وشبَّهه في ذلك بالزمن عند أغسطين حيث إذا سألنا عن اليومي لا نحسن الإجابة عن ذلك، وإذا لم يسألنا أحد عنه، فإنَّا نعرف ماهيته. هنا تكمن المفارقة: نعرف اليومي بمجرَّد أننا نحدس جوهره، ما أن نباشر إلى القبض عليه في لغة فلسفية معلَّلة برهانياً ومنسَّقة، فهو يفلت منَّا. كيف إذاً الاقتراب منه؟ يمكن أن نجازف بالقول مع بيغو، بأن اليومي ليس مسألة «نظرية» (اجتماعية، فلسفية، تاريخية)، بل هو مسألة «نظر»، أي الرؤية النبيهة التي تعمل على حدسه في العُمق بوسائل فينومينولوجية في أبعادها ونتائجها. لا نكتفي بما يقوله الباحث عنه في نظرية يقوم بتشكيلها حوله، بل نرى ما يكشف عنه اليومي بذاته في مختلف تحوُّلاته وطفراته، أي أنَّا نقف عند ظاهرته ونسعى للوقوف عند «الشيء ذاته» (la chose-même) لهذا اليومي في التباسه: «نزع السياق عن اليومي مهمٌّ لبلوغ جوهر الظاهرة التي لا تتجلَّى بالضرورة في التتابع العَرَضي لتمظهرها الفريد»[10].

لفهم ذلك، علينا أن نُميِّز بين المظهر (Erscheinung) والظاهرة (Phänomen)، وهو تمييز لا يوجد في اللغة الفرنسية ولا في اللغة العربية. كان هُسِّيرل قد استعمله بشكلٍ مترادف[11]، لكن قام هايدغر بالفصل بين المفردتين. «المظهر» ما هو معطى للدراسة، أي موضوع بحثٍ أو تخمين، أي مادَّة النظرية، وينتقل إلى «الظاهرة» عندما ينكشف بذاته ويصبح مادَّة النظر ويرتبط بالمعيش المباشر. ينتقل هكذا من الموضوع (objet) إلى المعيش (vécu). لكن أعطاه هايدغر مدلولاً مختلفاً، هو أن Erscheinung ما يتخفَّى في الظاهر نفسه ويكتسب دلالة سلبية في المظهر أو الإيهام أو السيمولاكر، وPhänomen ما هو متجلٍّ ويكتسب دلالة إيجابية في ما هو ظاهر من الظاهرة. للوصول إلى الظاهرة، ينبغي تحييد البُعد

---

[10] Ibid., p. 63.

[11] «الظاهرة (Phänomen) لها معنى مزدوج بحكم التضايف (corrélation) بين الظاهر (Erscheinen) وما يظهر (Erscheinenden). الظاهرة معناها ما يظهر، لكن تُستعمل للدلالة على الظاهر نفسه (l’apparaître) بالنسبة للظاهرة النفسية».

Husserl, *L’Idée de la phénoménologie*, p. 116, cité par F. Dastur, « Erscheinung », in Barbara Cassan (éd.), *Vocabulaire européen des philosophies, Paris, Seuil/Le Robert*, 2010, p. 376.

التجريبي (empirique) للوصول إلى الماهية الخالصة. تكون الظاهرة من ثمَّة هي «المعطى الخالص للظاهر»[12].

إذا قرأنا اليومي بهذه المفاهيم الفينومينولوجية، نُدرك أن هذا الأخير ينفلت من الدراسة ويحتجب ليختبئ في عين ظهوره، أي أنه يضحى مجرَّد مظهر. للوصول إلى ماهية اليومي ينبغي عزل أو تعليق كل إشارة إلى البُعد التجريبي أو الأمبريقي، أي أننا نتوقَّف عن رؤية الأشياء بمنظار المنفعة أو المصلحة، ونُجرِّد رؤيتنا المنفعية للوصول إلى ماهية الظواهر: «لقد شدَّد هُسِّيرل على التماثل بين مواقفهم تجاه العالم، وذلك بـ"وضع بين قوسين" علاقتنا المعتادة بالعالم لنترك الأشياء تتعرَّض بذاتها. لكي تكون فينومينولوجياً لا يكفي فتح الأعين، ولكن يجب ممارسة نوع من الزُّهد، وهو كلمة تعني في الإغريقية "التدريب". ينبغي أن نُدرِّب نظرنا، أن نجعله حادًّا أو بصيراً، أن نجعل بين قوسين انشغالاتنا الراهنة لكي نُبرز الأشياء في حقيقتها القصوى»[13]. تدريب النظر على كيفية رؤية أشياء العالم هو المدخل الأساس لإدراك جوهر اليومي.

3

الخطأ الذي ترتكبه الفلسفة في مقاربتها لليومي هي اعتقادها بأن النظرية الفلسفية كفيلة بالقبض على جوهر اليومي، بينما ما تقبض عليه في سلسلة البراهين والحجج هو فقط المظهر، لأن اليومي يختفي في عين ظهوره. على الفيلسوف أن يُدرِّب نظره أكثر فأكثر ليخترق سُمك المظهر ويصل إلى الظاهرة: «ما تريد الفلسفة إدراكه في اليومي يتعالى على كل بحثٍ من نمط أنثروبولوجي أو اجتماعي. تبحث الفلسفة في الحاضر عن الحضور، وتبحث في الظاهرة عن ظاهريتها (phénoménalité)»[14]. ينبغي أن يكون البحث إذاً خالصاً من كل منفعة، بعزل الأشياء عن الأدوار التي تقوم بها أو النتائج التي تتوصَّل إليها، لإدراكها في ذاتها، في محض ماهيتها. بتعبير آخر، في رؤيتنا لأشياء اليومي، لا نبحث عن الهدف الذي تؤدِّي إليه، أي ما يعود علينا بالمنفعة أو ما ينبغي تفاديه من مضرَّة، بل نبحث عن ماهيتها وتجلِّيها في محض ظهورها.

بناءً على هذه الرؤية التي تتعالى على الشيئية الفظَّة لليومي، يُقدِّم بيغو تصوُّره لليومي وخطة الطريق الفلسفي نحو اليومي: «في الحقيقة، ما يقود تأمُّلنا، ليس إبراز مضمون اليومي

---

[12] Natalie Depraz, *Le phénomène*, Bréal, 2014, p. 99.

[13] فرانسواز داستور، «مدخل إلى الفينومينولوجيا»، ترجمة محمد شوقي الزين، مجلة **الكلمة**، عدد 79، ربيع 2013، ص112.

[14] B. Bégout, *La Découverte du quotidien*, p. 64.

بلا إمكانية في التغيير، أي جوهره الكوني والعابر للتاريخ، بقدر ما هو فهم عملية تشكُّله. لا تهدف مقاربتنا إلى الكشف عن البنيات الأولية والقبلية للحياة اليومية، بل النظر في نشأته الاجتماعية-المتعالية انطلاقاً من العلاقة الأصلية بين الإنسان والعالم»[15]. ليس الغرض هو البحث عن البُعدي الكوني والعالمي لليومي، أي ما يشترك حوله البشر من ممارسات يومية، بل البحث عن الاختلافات في سياق تشكُّلات تختلف من عصر لآخر ومن إقليم لآخر. ربَّما الرواية في الأدب هي أحسن وسيلة في الاقتراب من جوهر اليومي بما تُفتِّش عنه من دقائق الأشياء اليومية التي لا نعيرها اهتماماً، وتُجلي ما يختفي في محض حضوره، بأن تُسلِّط عليه النور ليتبدَّى بذاته.

بالتَّفتيش عن ماهية اليومي في عملية تشكُّله، فإن المنهج الذي يسير وفقه بيغو هو النشأة (genèse)، أي العوامل المحلية والمتعالية التي أسهمت في جعل اليومي ما هو عليه في محض ظهوره. يُسمِّي ذلك سؤال التأسيس أو الوضع (institution)، بمعنى الطريقة التي يُؤسِّس بها الوعي علاقته بالواقع المعيش. قبل كل توضيع علمي (objectivation)، أي قبل أن يصبح اليومي «موضوعاً» للمعرفة العلمية أو الفلسفية، فإن هذا اليومي يُدرَك ببنيات قبلية للوعي، بالحدس الأصلي والسابق على كل تجربة: «ليس اليومي أكثر توحُّشاً وسابقاً على كل مفهوم منه متوحِّش مفهومياً، بمعنى أن اليومي لا يفلت كلية من العقل أو اللوغوس (logos)، بل يفلت فقط من اللوغوس النظري للخطاب الفلسفي والعلمي الذي يسعى لأن يُضفي عليه عقلانية منطقية-صورية التي لا يمتلكها في شكله الخالص»[16].

غالباً ما نظنُّ بأن اليومي له طابع متوحِّش أو فظ، أي أنه مثل الطبيعة، ينبغي إخضاعه إلى إجراءات علمية لفهمه والإحاطة بأسراره. يكون ذلك بإجراءات عقلية أو ما يُسمِّيه «لوغوس» (logos) الذي يعني في الوقت نفسه العقل والخطاب، أو التفكير والتعبير. بمعنى أن المعرفة العلمية أو الفلسفية تعمل على «عَقْلَنَة» هذا المتوحِّش بتهذيبه في خطابٍ علمي يستعين بالمفاهيم لشرح طبيعته وفك ألغازه. إذا كان اليومي يُدرَك نسبياً بوساطة هذه الإجراءات العقلانية، كما يتجلى ذلك في الإحصائيات والجداول (ديموغرافيا، اقتصاد، حركية المجتمع، إلخ)، إلا أن جوانب كثيرة من اليومي تبقى في الظل، متوارية عنَّا. مهمَّة الفلسفة هي أن تُلقي نظاماً في الإنارة الفينومينولوجية لتبديد العتمة التي تستبدُّ باليومي.

[15] Ibid.

[16] Ibid., p. 67.

يمكن تصوير اليومي على شاكلة الجبل الجليدي أو آيسبرغ (Iceberg) حيث الجانب الخفي هو أعظم من الجانب الظاهر المعطى لحواسنا المباشرة.

ما ندركه من اليومي هو فقط ما يمكن للنظر أن يحيط به. عليه أن يلج أكثر في طبقاته السميكة والعميقة لينجلي له أكثر. صحيح أن المعرفة العلمية أو الفلسفية، باللوغوس الذي تتسلَّح من أجل عقلنة اليومي وتهذيب الجانب المتوحِّش منه، تُسهم في الكشف عن الجانب الخفي منه. غير أن الوهم الذي تسقط فيه هذه المعرفة هي عندما تدَّعي أنَّ ما تصل إليه هو الحقيقة المجرَّبة والمبرهن عليها، بينما ما تصل إليه هو فقط انطباعها حول اليومي الذي يتعزَّز بالبحوث والفرضيات والنظريات. لليومي قدرة عجيبة على الانفلات من آليات الرصد العلمي. ما تُثبِّته الإجراءات العلمية في النماذج والجداول والإحصائيات هو مجرَّد عيِّنات افتراضية. لأن اليومي، بقُدرته على الانفلات، له القدرة على تحقيق طفرات في القصد. اليومي هو قصديات متحوِّلة ومنفلتة، ولا يمكن عدُّه مادَّة عضوية قابلة للتجريب في المخبر العلمي واستخلاص قانون طبيعي بشأنه. اليومي الذي هو مرتع الأفعال البشرية هو إذاً حقل القصديات التي تتحوَّل بتحوُّل موضوعاتها وأهدافها.